المحاضرة الثانية:

لسانيات دو سوسير

أولا: فرديناند دو سوسير (F.De Saussure) (1857-1913م):

كان السويسري فرديناند دي سوسير واحدا من أعظم الباحثين اللسانيين في جميع العصور. إن شخصيته القوية وموهبته اللسانية الأصيلة، ونزوعه الفائق إلى جانب البحث النظري، والتأثير الذي مارسه على طلابه، كل أولئك جعله يؤسس لعصر بأكمله من الدرس اللساني.

كان دو سوسير أستاذا للسانيات في جنيف وباريس. قام فيها بتدريس اللغات السنسكريتية والجرمانية واليونانية واللتوانية. ولم يبدأ شغف دو سوسير بالافكار اللسانية العامة إلا بعد عام 1894م.

تلقّى دو سوسير تدريبه اللساني على يد أعلام النحاة الشبان (بروجمان Brugmann وأوستوف Ostoff وليسكين Leskin). وكان جيد الاطلاع على آراء اللساني الطبيعي شليخر أو شليشر (Schleicher)، وعالم الجغرافيا اللسانية جييرون (Gillieron). وكان له رأي طيب في الباحث اللساني الأمريكي و.د.ويتني (W.D.Whitney) ولا سيما في كتاب " اللغة: حياتها ونموها " (The life and growth of language). غير أن تحمسه كان لمدرسة قازان (Kasan school) على وجه الخصوص.

كان دو سوسير شغوفا بما تحقق من تقدم في التخصصات غير اللسانية، ولا سيما في علم الاجتماع، وكان لنظرية دوركايم (Durkheim) أثر قوي عليه.

ورغم تعلم دي سوسير على يد النحاة الجدد إلا أنه أظهر نزعة استقلالية عنهم فوق المعتاد في المقاربة البحثية؛ ذلك أن الظواهر اللسانية عولجت في هذا العمل بوصفها كلا، أي في نظام، على بلغ مبلغ الثورة في المنهجية اللسانية.

تجلت آراء دي سوسير عن اللغة في الكتاب الذي ظهر باسمه عام 1916م تحت عنوان " دروس في اللسانيات العام course de linguistique générale ".

كان دو سوسير مهتما قبل كل شيء بطبيعة اللغة بما هي موضوع للبحث العلمي؛ أي بالكيفية التي ينبغي أن تتم بها مقاربة اللغة واستيعابها.

وقد وجدت اللسانيات الحديثة أصولها فيما قرَّره دي سوسير من معتقدات وعدَّه أساسا لمذهبه؛ فاللغة هي نظام منسوق ذو وظيفة اجتماعية محدَّدة.

ثانيا: الدراسات اللغوية السابقة عن دي سوسير:

تمت بالفعل دراسة محيط القرن التاسع عشر الذي نشأ فيه علماء القرن العشرين الأوائل، والذي يمكن أن نميّز فيه ثلاثة اتجاهات على الأقل:

- الاتجاه الأول: هو التراث المتواصل للأعمال القواعدية والأعمال اللغوية الأخرى التي أعدَّها علماء أوروبيون بطرق مختلفة منذ العصور القديمة.
- الاتجاه الثاني: هو الفهم المتعاظم للعلم اللغوي الهندي خاصة في الصوتيات والفونولوجيا.

- الاتجاه الثالث: هو تمثل العلم اللغوي – وبشكل خاص في توجهه التاريخي – لمواقف عامة للقرن التاسع عشر، ولنظرية المقارنة ونظرية التطوّر والنظرية الوضعية للعلوم الطبيعية.

الفرق الأساسي والأكثر وضوحا بين القرنين التاسع عشر والعشرين كان النهوض السريع للسانيات الوصفية في مقابل اللسانيات التاريخية، حتى كان له وضع السيادة.

وكانت الشخصية الرئيسية في تغيير مواقف القرن التاسع عشر لمواقف القرن العشرين على نحو مهم هو اللساني السويسري فردينان دي سوسير (F.De Saussure) (1857–1913م). وقد اعتمد على نطاق محدود من اللغات هي غالبا لغات أوروبا المألوفة، ولكن تأثيره في اللسانيات في القرن العشرين الذي يمكن أن يقال إنه قد دشَّنه، لم يتفوَّق عليه أحد.

من الناحية التاريخية يمكن لأفكار دي سوسير أن توضع تحت ثلاثة عناوين، وهي:

- صاغ وأوضح ما اعتبره اللغويون السابقون أمرا مفروغا منه أو تجاهلوه. وهما البعدان الأساسيان للدراسة اللغوية؛ الأول: الدراسة التزامنية (La synchronie)، والثاني: الدراسة التعاقبية التاريخية (La Diachronie). ولقد كان إنجازا منه أن يميّز بين هذين البعدين، وكل منهما يستخدم مناهجه ومبادئه الخاصة به وأساسياته.
- ميَّز بين المقدرة اللغوية للمتكلم وبين الظواهر الواقعية أو مادة اللسانيات (المنطوقات) بوصفهما اللغة (Langue) والكلام (Parole)، وبينما يشكِّل الكلام المادة التي يمكن الحصول عليها مباشرة، فإن الهدف الصحيح للغوي هو لغة كل جماعة لغوية، أي المعجم والقواعد والفونولوجيا المغروسة في كل فرد بسبب نشأته في المجتمع المعيَّن وتنشئته على الأسس التي وفقا لها يتكلَّم لغة هذا المجتمع ويفهمها.
- أوضح دي سوسير أن أي لغة يجب أن ترى وتوصف تزامنيا بوصفها نظاما من العناصر المترابطة، وليس بوصفها مجموع الكيانات مكتفية بذاتها. والمصطلحات اللغوية يجب أن تعرَّف لبعضها البعض وليس بشكل مطلق. وهذه هي النظرية التي عبَّر عنها بقوله إن اللغة عبارة عن صيغة (شكل Forme) وليست مادة. وهذه العلاقات المتبادلة في اللغة تقوم على كل من البعدين الأساسيين للتركيب اللغوي التزامني: البعد الأفقي (Syntagmatique) المنطبق على تتابع المنطوق، والبعد الرأسي (الترابطي Paradigmatique) المتمثل في أنظمة العناصر أو الفئات المتقابلة.

ثالثا: مبادئ الدراسة اللسانية للغة عند دي سوسير:

1- لقد ميَّز دو سوسير بين الدراسة الوصفية للغة في بعدها الداخلي، وبين الدراسة التاريخية.
2- إن اللغة نظام من الإشارات (العلامات) (système de signes).
3- التفريق بين اللغة والكلام (Langue/Parole).
4- اللسان (Le langage) نظام ترتبط فيه جميع أجزائه بعضها ببعض.

رابعا: ثنائيات دو سوسير

1- **ثنائية اللغة والكلام:** يقصد بها التفريق بين النسق المجرَّد الذي هو مجموعة القواعد والمواصفات التي تتميَّز بها لغة عن غيرها من ناحية، والتحقق العيني المادي لهذا النسق في الممارسة الفعلية للأفراد من ناحية ثانية. وإذا كانت اللغة هي النسق المجرَّد الذي يقع وراء الكلام، فإن الكلام هو التحقق الفردي لهذا النسق أو الممارسة الفعلية له. وإذا كانت اللغة هي التي تحدِّد طبيعة الكلام بل تحدِّد طبيعة كل ظاهرة فردية من ظواهره، فإن هذه اللغة – من حيث هي نسق – ليس لها وجود إلا في تجلياتها التي يحققها الكلام.

2- ثنائية الدال والمدلول:

من بين النتائج التي توصل إليها سوسير من خلال دراسته للغة باعتبارها ظاهرة مشتركة هي أن اللغة تتكوَّن من وحدات أساسية تسمى بالعلامات اللغوية أو الرموز اللغوية (Signes) وتتكوَّن من صورة سمعية وتتمثل في السلسلة الصوتية المدركة بالسمع، ومفهوم هو مجموع السمات الدلالية التي تحيل إليها الكلمة. فمثلا كلمة طالب هلا علامة لغوية تتكون من صورة سمعية وهي الإدراك السمعي والنفسي لتعاقب الأصوات وتتابعها (ط.ا.ل.ب) ومفهوم وهو مجموع السمات الدلالية التي توحي إليها هذه الكلمة (إنسان يتميّز بالعقل يدرس في مكان يسمى الجامعة).

وإن التتابع الصوتي بمفرده لا يكون علامة لغوية، وإنما هو عبارة عن أصوات مجرَّدة. كما أن السمات الدلالية إذا عزلناها عن الألفاظ التي تدل عليها لا تشكل علامة لغوية. فالعلامة اللغوية هي الكل المتكامل (الصورة السمعية + المفهوم).

وقد فضَّل سوسير استعمال مصطلح العلامة اللغوية على هذا الكل المتكامل وقد استبدل مصطلحي صورة سمعية /مفهوم بمصطلحي دال/ مدلول.

وقد رأي سوسير أن العلاقة بينهما اعتباطية أي غير مبررة منطقيا.

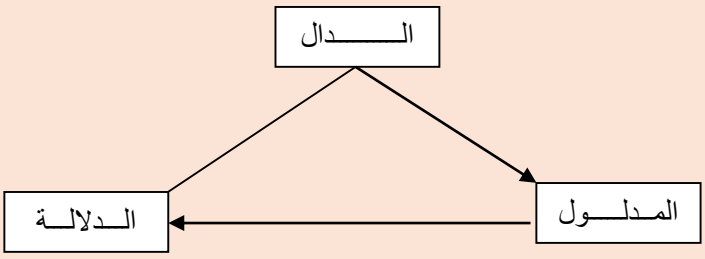

خامسا: مفهوم الدليل اللغوي (Le signe linguistique):

يمكن أن نصوِّر عملية الدلالة على الطريقة السوسيرية كما يلي: هناك شيء أو مفهوم يريد الإنسان أن يتحدَّث عنه فلنسميه المدلول عليه، يبحث الإنسان عنه في ذهنه، في النظام التقديري عن المفهوم (أي عن

التصور الذهني) الذي ينطبق على هذا الشيء وقد تعلَّمه أو ورثه بحكم تجربته عن أفراد مجتمعه نسميه المدلول. ثم يربط المدلول بالصورة الصوتية التي تناسبه وهذه الصورة الصوتية هي عبارة عن تصور الإنسان للأصوات التي يلفَّظ بها أو الانطباع الذهني الذي يتركه كل صوت يتلفَّظ به الإنسان أي بتعبير آخر يقرِّب المعنى للأذهان كأن لكل صوت يصور ذهنيا في دماغ الإنسان (أبجدية متمثلة في التصورات التي رسمت في الذهن على كل الأصوات المتلفظ بها) والصورة الصوتية عند سوسير هي الدال. وعندما يربط المتحدث المتكلم المدلول بالصورة الصوتية يكون قد أكمل العملية واستطاع أن يتفوه بالأصوات (المحسوسة) التي تشكل المظهر الخارجي المحسوس للدليل اللغوي والذي نسميه الكلمة في التعبير المتداول على ألسنة العامة.

ويقول سوسير موضحا ما سبق " يظن الناس أن اللسان إنما هو في أصله مجموع الألفاظ أي قائمة من الأسماء تطلق على عدد مماثل من المسميات. وفي تصورة هذا نظر، من عدة وجوه: إنه يفترض وجود معان جاهزة قبل وجود ألفاظها ثم إننا لا نتبيّن به هل الاسم هو جوهر صوتي أم نفساني...ويشعرنا أيضا أن ارتباط الاسم بالمسمى هو عملية في غاية البساطة وهذا بعيد جدا عن الواقع...إن الدليل اللغوي لا يربط مسمى ما باسمه الملفوظ بل مفهوم ذلك الشيء أو تصوره الذهني بصورة لفظه الذهنية. فهذه الصورة الصوتية ليست هي الصوت المادي لأنه شيء فيزيائي محض بل انطباع هذا الصوت في النفس والصورة الصادرة عما تشاهده حواسنا. فالدليل اللغوي إذن كيان نفساني ذو وجهين ويسمى دليلا لغويا المركب من المفهوم والصورة الصوتية (صورة الصوت في الذهن)...ولكن نقترح لفظة الدليل للدلالة على الكل واستبدال لفظتي المفهوم والصورة الصوتية بلفظتي الدال والمدلول".

سادسا: خصائص الدليل اللغوي

1- **اعتباطي:** يتصف الدليل اللغوي مثله مثل الأدلة الوضعية بالاعتباطية أي أن فيه العلاقة التي تربط الدال بالمدلول علاقة وضعية غير طبيعية غير حتمية. فلا يوجد في سلسلة الأصوات التي تمثل الدال ما يدل على المدلول عليه إنما تم ذلك بالتواطؤ والاصطلاح.

2- **يتسلسل في ظهوره تسلسل الزمن فله بعد واحد البعد الخطي:** ليس للدليل اللغوي وركيزته المادية الصوت كما علمان غلا بعد واحد هو خط الزمن فهو يتسلسل عند إحداثه تسلسل الزمن في خط واحد أفقي نسميه في اصطلاح أهل الاختصاص مدرج الكلام.

3- **كيان تفاضلي سلبي:** تجري مجاريه بوجوده أو بعدم وجوده فهو يدل على مدلوله عند مقابلته مع دليل آخر وهو ينتمي إلى نظام، نظام اللغة المعينة ولا يكتسب قيمته إلا عند تقابله مع أدلة أخرى تنتمي على نفس النظام.